الزمن في الحكاية الإطارية
سابع أيام الخلق أنموذجاً

أ.د. علي عبد الرزاق حمود السامرائي
كلية التربية أبن رشد/جامعة بغداد

يمثل الزمن العنصر الأساس للرواية ، إذ أنه وسيطها – أي الرواية ولا يمكن أن نكتب من دونه على حد تعبير هانز ميرهوف، ذلك لأن الزمن (يتخلل الرواية كلها ... فهو الهيكل الذي تشيد فوقه الرواية)[١] ، من هنا تظهر أهمية الزمن بوصفه عنصراً يؤثر في العناصر الأخرى في الرواية وينعكس عليها من خلال مفعوله فيها . فيغدو بذلك العنصر الأكثر أهمية في الرواية. وإذا كانت بعض الدراسات تولي الزمن الروائي هذه الأهمية فأن هناك يضع تصوراً مختلفاً للزمن ولاسيما من يمثل اتجاه الرواية الجديدة . إذ يرون أن الزمن يوجد (مقطوعاً عن زمنيته ، أنه لا يجري لأن الفضاء هنا يحطم الزمن)[٢].

وعلى كل حال فأن أياً من التصورات سواء تلك التي ترى الزمن هو أهم العناصر أم تلك التي ترى مفهوماً مغايراً ، فذلك لا يغير من أن (إشكالية الأدب القصصي ... هي إشكالية زمنية في الجوهر)[٣] . وهو ما نتفق معه .

لذا فأننا نجد أن هناك دراسات عدّة حاولت جاهدة دراسة الزمن الروائي ومن أهم هذه الدراسات دراسة جيرار جنيت في كتابه (خطاب الحكاية ، إذْ حدد ثلاثة علاقات يمكن عن طريقها دراسة الزمن الروائي وهي الترتيب والديمومة والتكرار تبعاً لعلاقة بين زمن القصة وزمن الخطاب).

والذي يعنينا هنا هي العلاقة الأولى – أي الترتيب – التي تعني مقارنة نظام ترتيب الأحداث أو المقاطع الزمنية في الخطاب السردي بنظام تتابع هذه الأحداث أو المقاطع الزمنية نفسها في القصة ، إذ – وكما معلوم – لا يمكن لزمن الخطاب أن يكون موازياً تماماً لنظام زمن القصة ويعود السبب في ذلك إلى أن زمن الخطاب هو زمن أحادي البعد ومن ثم فأنه يخضع لترتيب زماني خطي في حين أن زمن القصة هو زمن متعدد الأبعاد ، إذ تجري أحداث كثيرة في آن واحد.

وغالباً ما يعمد الروائيون إلى إحداث خلخلة الترتيب (أي إحداث تحريفات زمنية على حد تعبير تودوروف) وتتم هذه التحريفات بوساطة الاسترجاع أو الاستباق أو المفارقة الزمنية المركبة (استرجاعات على استباقات أو استباقات على استرجاعات) .

تبعاً لذلك فأن دراسة الترتيب ومن ثم تحديد الاسترجاع أو الاستباق يعني تحديد النقطة الزمنية لانطلاق السرد ، ذلك لأن الاسترجاع يعني (كل ذكر لاحق لحدث سابق للنقطة التي نحن فيها من القصة)[٤] . أما الاستباق فهو كل حركة سردية [تقوم على أن يروى حدث لاحق (أو يذكر) مقدماً][٥] للنقطة التي نحن فيها من القصة ، وهذا يعني أن تحديد نقطة الشروع في السرد هي أمر في غاية الأهمية إذا ما أردنا دراسة الترتيب في رواية ما .

وإذا كان من السهولة تحديد الاسترجاعات أو الاستباقات في الروايات التي تعتمد نمط التتابع[*] في بنائها ، فأنه من الصعوبة بمكان تحديد الاسترجاعات (بأنواعها الداخلية والخارجية والتكرارية والمزجية) في الحكاية الإطارية ، وكذلك الأمر بالنسبة للإستباقات (وبأنواعها الداخلية والخارجية والتكرارية والمزجية).

ويعود السبب في ذلك أن الحكاية الإطارية ، تضم مجموعة من الحكايات الفرعية التي تضوي تحتها ، مما ينتج عن ذلك وجود أزمنة متعددة فلكل حكاية زمنها الخاص ، وهذا يعني تحديد نقطة الشروع في السرد على مستوى الرواية ككل هو أمر في غاية الصعوبة ، ولكي نتفادى ذلك يأتي اقتراحنا بتقسيم الحكاية الإطارية إلى عدد من الوحدات (يساوي عدد الحكايات المتضمنة) ليتسنى لنا تحديد نقطة انطلاق السرد ، ومن ثم دراسة الاسترجاعات أو الاستباقات – بأنواعها المختلفة – داخل حكاية ما ، وتبعاً لذلك فأن الاسترجاعات الداخلية – على سبيل المثال – هي استرجاعات داخلية بالنسبة للحكاية التي تتموقع فيها لا ضمن العمل الروائي ككل ، وبمعنى آخر نلجأ إلى تحديد الاسترجاعات الداخلية أو الخارجية في ضمن البناء الجزئي. والأمر نفسه بالنسبة للاستباقات والمفارقة الزمنية المركبة.

ولكي نوضح ما ذهبنا إليه . سنتخذ من رواية (سابع أيام الخلق) إنموذجاً. إذ تتخذ هذه الرواية طابع الرواية الإطارية . ومن أجل الوصول إلى طبيعة الترتيب وحصر المفارقات الزمنية داخل هذه الرواية فقد حاولنا – عن طريق دراسة وتحليل الزمن في الرواية – تحديد الأزمنة داخل هذه الرواية ، وقد تبين لنا أن ثمة ثلاثة أزمنة أساسية في الرواية – وأن بدت متشابكة – ، وهي زمن الأسفار (سفر الألف – ... سفر النون) وزمن الاشراقات (إشراق الأسماء وإشراق الصفات وإشراق الذات) وزمن الكتب (كتاب الآنية وكتاب الهوية) ويبقى كتاب الأحدية تتنازعه الأزمنة الثلاث فهو يمثل نواة الراووق أي بداية زمن الكتب . ويحكي الجزء الرابع (المحظور) من السيرة المطلقية أي نهاية زمن الاشراقات ، وبوجود أوراق السيد نور (كتاب الأحدية) تنتهي رواية الأسفار.

وسنعدّ هذه الأزمنة وحدات زمنية كبرى خارجية (أي أن كلاً من الأسفار والكتب والاشراقات تمثل وحدات زمنية كبرى خارجية داخل الرواية ككل)، فالأسفار تمثل الحاضر والمستقبل ، فهي استشراق (استباق) لما هو آت [من خلال سعي الروائي لكتابة رواية] ، والكتب تمثل الماضي القريب من الحاضر – باستثناء كتاب الأحدية – فكتاب الآنية (الذي يسرد فيه شبيب طاهر الغياث قصة تحقيقه لمخطوط (الراووق) هو استرجاع خارجي ، أما كتاب الهويّة (الذي يسرد فيه ذاكر القيم نشأة مخطوط الراووق) فيُعدّ استرجاعاً خارجياً للماضي الأكثر قرباً إلى حاضر السرد.

أما الاشراقات (إشراق الأسماء ، إشراق الصفات ،إشراق الذات) فضلاً عن كتاب الأحدية ، فيمكن أن نعُدّها استرجاعات خارجية لأنها تتحدث عن السيرة المطلقية وهي ماضٍ بعيد جداً ، فإذا كان إشراق الأسماء يتحدث عن الجزء الأول من السيرة المطلقية وإشراق الصفات وإشراق الذات يتحدثان عن الجزءين الثاني والثالث – على التوالي – من السيرة المطلقية ، فأن كتاب الأحدية يتحدث عن الجزء الرابع من السيرة المطلقية.

والتداخل بين هذه الأزمنة المتباعدة جداً هو ما يشكل المفارقة الزمنية إذ أن الراوي يتخذ من الحاضر (سفر الألف) مفتتحاً لبدء السرد ثم يعود إلى الماضي البعيد جداً (إشراق الأسماء) ، ليعود إلى الحاضر (سفر اللام) ثم العودة إلى الماضي القريب من حاضر السرد (كتاب الآنية) ، ثم يعود إلى حاضر السرد (سفر الراء) لينتقل بعده إلى الماضي البعيد جداً (إشراق الصفات) والعودة للحاضر مرة أخرى (سفر الحاء) ومنه إلى الماضي القريب (كتاب الهوية) وعودة للحاضر (سفر الميم) ومنه الرجوع إلى الماضي البعيد لينتقل إلى الحاضر. وهذه المرة بدل الرجوع إلى الماضي القريب يعود إلى الماضي البعيد جداً (كتاب الأحدية) . والراوي في كل ذلك يتحرك حركة توافقية مكررة.

هذا على مستوى الوحدات الزمنية الكبرى الخارجية ، أما على مستوى الوحدات الزمنية الكبرى الداخلية (أي الوحدات الكبرى التي تكون داخل كل سفر من الأسفار أو كتاب من الكتب أو إشراق من الاشراقات) ، فقد أشرت دراستنا في زمن الأسفار تتابعية هذه الوحدات ، بمعنى أن خط الزمن داخل الأسفار يسير بشكل تتابعي . وتبدأ هذه الوحدات بمعرفة شخصية الروائي بيدر فرهود الطارش وتعرفه على ورقاء وشروعه في كتابة الرواية ، وبصرف النظر عما انتهت إليه الأسفار فأنها كانت تتابع وصولاً إلى سفر النون.

وما نجده في الأسفار نجده كذلك في الكتب ، إذ يسير خط الزمن بشكل تتابعي ، باستثناء كتاب الأحدية الذي يتأرجح فيه خط الزمن بين الحاضر والماضي ، إذ يبدأ الحاضر ثم يعود إلى الماضي ، ثم يستمر خط الزمن بعد ذلك بشكل تتابعي.

أما في الاشراقات فأن خط الزمن ينتقل من الماضي إلى الحاضر ومن الحاضر إلى الماضي وهكذا ، هذا ما يتعلق بالوحدات الزمنية الكبرى الداخلية في إشراق الأسماء وإشراق الصفات ، أما إشراق الذات فخط الزمن يسير بشكل تتابعي.

أما على مستوى الوحدات الزمنية الصغرى (ونعني بها الوحدات الزمنية التي تنضوي تحت الوحدات الزمنية الكبرى) ، فقد أشرت دراستنا وجود أشكال متعددة من الاسترجاعات أو الاستباقات ، منها ما نجده في الأسفار ، فعلى سبيل المثال نجد الراوي يستعيد لنا قصة جمع ثروة فرهود الطارش قائلاً ((فبعدما جمع فرهود الطارش ثروته الطائلة بطرقه العوجاء المعروفة ، مستنزفاً في ذلك شقاء البواشق وتعبهم في ذلك الزمن الصعب أورثها لأبن مبذر تتلخص مهمته في تبديدها على أكداس الورق البالي))[٦] ، فالحكاية هنا استرجاع خارجي بالنسبة إلى حكاية بدر فرهود الطارش ، وهي حكاية فرعية من حكايات الروائي

(شخصية الروائي داخل رواية سابع أيام الخلق) ، وليست استرجاعاً خارجياً بالنسبة للرواية أو الأسفار ككل ، إذْ أنها – أي قصة جمع الثروة – تمثل استرجاعاً خارجياً داخل الحكاية نفسها ، وليس في العمل الروائي ككل – كما سبق وأن ذكرنا – .

ومن الأمثلة الأخرى للاسترجاعات الداخلية ضمن البناء الجزئي ((أي الوحدات الزمنية الصغرى ما نجده في (إشراق الأسماء) إذ يسرد لنا الراوي تذكر مطلق لأصابته بمرض الطاعون ، إذْ يقول الراوي (كان ... في ضيافة واحد من أصدقائه المتنفذين الذين ندر لهم أن يفتحوا أبواب قصورهم الحصينة في استقبال أحد منذ استفحال الطاعون ، فجأة شعر بالعجز عن إيصال لقمة الطعام إلى فمه ، وانتابه على غير توقع إرهاق شديد لم يكن يوماً ما من طبعه وهو المجبول على الحركة والنشاط)[٧] . فالراوي هنا يسرد لنا ما سبق وأن أغفله ليروي لنا هذه الحادثة عبر استرجاعها استرجاعاً داخلياً ثم يعود إلى حاضر السرد. كذلك من الأمثلة الأخرى التي وردت ما نجده في كتاب الآنية ، إذ يسترجع شبيب لما أخبره بدر به ، إذ يقول شبيب (بعد مضي أسابيع – وكانت حمى الراووق قد ازدادت لديه حدة ، بأنه بعد بذل عشرات المحاولات كاد ينجح في فك عقدة لسان (ذاكر القيم) لكن المشكلة هي أنه كان يستحيل عليه توجيهه الوجهة المطلوبة)[٨] ، ويأتي هذا الاسترجاع – عبر العودة إلى الوراء لسرد الحادثة – كسابقيه من الأمثلة المتقدمة ، إذ يمثل استرجاعاً داخلياً ضمن الحكاية التي ينضوي تحتها.

وما يقال عن الاسترجاعات – على مستوى الوحدات الزمنية الصغرى – يقال عن الاستباقات أيضاً ، فعلى سبيل المثال نجد في كتاب الآنية أن الراوي يسرد لنا عبر لسان شبيب طاهر الغياث قائلاً ((كنت خير من يعرفه : حين تستقر فكرة ما في رأسه لابد له من تنفيذها مهما كلفه الأمر . وذلك ما كنت أحسب له

ألف حساب . كنت أعلم أن حمى الراووق قد أدخلته في آخر أطوارها ، وهو طور الصمت الذي ستكون نتيجته نهائية وحاسمة ، وهي تنفيذ تلك الفكرة التي طال اختصارها في رأسه ، وذلك ما حدث فعلاً))[٩] إذ أن شبيباً وبحكم معرفته ببدر جعلته يستبق الأحداث ليخبرنا بما سيقع وقد وقع فعلاً .

ومن الأمثلة الأخرى التي نعثر عليها في الأسفار هو أخبار ورقاء الروائي (شخصية الروائي) بأنها تفكر في (الاستمتاع بعد أسابيع بأجازتها السنوية ، متخلصة بذلك من حر الصيف الذي أخذ يطبق على أنفاسنا)[١٠] وسرعان ما تتمتع ورقاء بأجازتها.

يتضح من الأمثلة السابقة – المتعلقة بالاستباقات – بأنها تمثل استباقات ضمن الحكاية التي تندرج تحتها .

نخلص من كل ما تقدم أن دراسة الزمن في الحكاية الإطارية لا يمكن أن يخضع للشروط والضوابط نفسها في دراسة الحكاية غير الإطارية ، ذلك لأن ثمة خصائص تتمتع بها الحكاية الإطارية وتنفرد عما سواها من الحكايات ولاسيما على صعيد الزمن.

الهوامـــش :

١. سيزا قاسم ، بناء الرواية ، ص٣٤ .

٢. سعيد يقطين ، تحليل الخطاب الروائي ، ص٦٨ .

٣. سمير الحاج شاهين ، لحظة الأبدية ، ص٦٣-٦٤. .

٤. جيرار جنيت ، خطاب الحكاية ، ص٥١ .

٥. المصدر نفسه ، ص٥١ .

* ونعني هيمنة نمط التتابع على مستوى الخطوط العريضة للعمل الروائي.

٦. سابع ايام الخلق ، ص١١٧ .

٧. المصدر نفسه ، ص٧٤ .

٨. المصدر نفسه، ص١١١ .

٩. المصدر نفسه ، ص١١٣ .

١٠. المصدر نفسه ، ص١٩٢ .